مجلة مركز بحوث و دراسات المدينة المنورة

العدد السابع شوّال –ذو الحجة ١٤٢٤ هـ ديسمبر– فبراير ٢٠٠٤ م

- مركز المناخة الحضري ذاكرة حية لتراث المدينة
- رواد علم السيرة في المدينة
- فخري باشا والدفاع عن المدينة : ملحمة ومأساة
- البيوت التقليدية في المدينة المنورة
  أثر مواد البناء وأساليبه في تجانسها العمراني
- شد الأثواب في سد الأبواب للسيوطي (تحقيق)

عيون المدينة المنورة بموجب وثيقة عثمانية عام ١٢١٤هـ

ترجمة : د. سهيل صابان
باحث معلومات في مكتبة الملك فهد الوطنية بالرياض

يحوي الأرشيف العثماني معلومات كثيرة عن الحجاز بشكل عام والمدينة المنورة بشكل خاص ، في آلاف الوثائق المصنفة تحت مختلف أنواع تصانيف هذا الأرشيف العالمي ، الذي يؤرخ لتاريخ العالم - في حقيقة الأمر - ، وليس لتاريخ دول الشرق الأوسط ومناطقها فحسب . ومن بداهة الأمر أن يضم هذا الأرشيف معلومات غزيرة عن الحجاز ؛ لكونه يحوي أقدس مدينتين في العالم ، هما : مكة المكرمة والمدينة المنورة ، كما يضم كذلك وثائق مهمة عن المدينة المقدسة الثالثة : القدس الشريف .

ويبدو واضحاً أن العثمانيين كانوا يعنون كثيراً بكل ما يعود على تلك البقاع المقدسة بالخير ، كما يعنون بتحسين أوضاع القاطنين فيها ، وتوفير حاجياتهم الضرورية ، تقرباً إلى الله تعالى ، ولنيل دعوات الخير من المجاورين المتفرغين للعبادة .

وموضوع المياه في الحجاز أحد الموضوعات التي اهتموا بها ، وهناك مخطوطات عدة ووثائق كثيرة في إستانبول عن عين زبيدة ، وكيفية بنائها وترميمها في مختلف الأزمان ، ووثائق أخرى عن العين الزرقاء التي تجري إلى المدينة المنورة ، وأقنيتها وسائر الأمور المتعلقة بها وترميمها .

وقد عثر الباحث على وثيقة في الأرشيف العثماني مصنفة تحت عنوان الخط الهمايوني برقم HH. 2745 عن ينابيع المياه في المدينة المنورة ، اتضح من خلالها أن حاجة المدينة للمياه دفع القائمين على شؤونها إلى البحث عن العيون وينابيع المياه في منطقة المدينة المنورة ، من خلال كتب التاريخ

التي تتحدث عنها ؛ بغية الكشف والتنقيب عن أماكنها ومن ثم استخراجها ، حيث أوردت الوثيقة - التي رفعها والي الحجاز يوسف باشا في شهر شعبان من عام ١٢١٤هـ/١٨٠٠م إلى السلطان العثماني سليم الثالث - معلومات مقتضبة عن خمسة عشر ينبوعاً من ينابيع المياه في منطقة المدينة المنورة تم تحديد أسمائها، وعن أربعة عيون حددت أماكنها وتم استخراج المياه منها ، وذكرت الوثيقة أن العمل جارٍ على تحديد خمس عيون أخرى . وأوردت معلومات عن الزراعة التي انتعشت في المدينة المنورة في عهد معاوية ﷺ ، ثم تبدل المناخ ، وانسداد تلك العيون وخرابها مع مرور الأيام . وأشادت بالجهود الفردية والجماعية لشيوخ بعض القبائل القاطنة في منطقة المدينة المنورة ، في استخراج بعض العيون .

وقد تبين من الوثيقة أيضاً أن البحث والتنقيب لم يكن للحاجة الماسة إلى المياه للشرب - كما يبدر إلى الذهن من أول وهلة - وإنما لتطوير الزراعة في منطقة المدينة المنورة ؛ حتى لا يبقى الاعتماد الكلي على الغلال الواردة من مصر ، ويبقى الأهالي تحت رحمة الطريق ، فإذا طرأ عليه طارئ أو انقطعت المؤن وارتفعت الأسعار ، وقد أشارت الوثيقة إلى حدوث هذه الحالة بسبب وقوع مصر تحت الاحتلال (الفرنسي) وإغلاق الطريق بينها وبين المدينة المنورة .

ولكن اللافت للنظر أن تشير إلى أن أهل المدينة لم يقلقهم ارتفاع الأسعار ، مما يدل على وجود سعة ووفرة مالية لديهم ، وأنهم ظلوا مطمئنين ما دامت السلع موجودة ، ولو كانت غالية .

وفيما يلي ترجمة كاملة للوثيقة :

المعروض الوارد من والي جدة يوسف باشا[١]

(١) **تاريخ الوثيقة - حسب معلومات الفهرسة في الأرشيف العثماني، شعبان ١٢١٤هـ. HH. 2745**

تذكر كتب تواريخ المدينة المنورة (وفاء الوفاء)[1] و (خلاصة الوفاء)[2] وغيرهما أنه في عهد النبي ﷺ وفي عهود الصحابة الكرام - رضوان الله عليهم أجمعين -

(١) عنوان الكتاب: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، لنور الدين علي بن عبد الله بن أحمد السمهودي (ت ٩١١هـ). وقد صدرت طبعة جديدة للكتاب من مؤسسة الفرقان، فرع موسوعة مكة المكرمة والمدينة المنورة، بتحقيق قاسم السامرائي، ١٤٢٢هـ. ويقع في ٥ مجلدات.

(٢) عنوان الكتاب: خلاصة الوفاء بأخبار دار المصطفى (مع زيادات من كتاب وفاء الوفاء) للإمام علي بن عبد الله السمهودي؛ تحقيق محمد أمين الجكني، ١٤١٨هـ. وقع في مجلدين.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

صورة الوثيقة

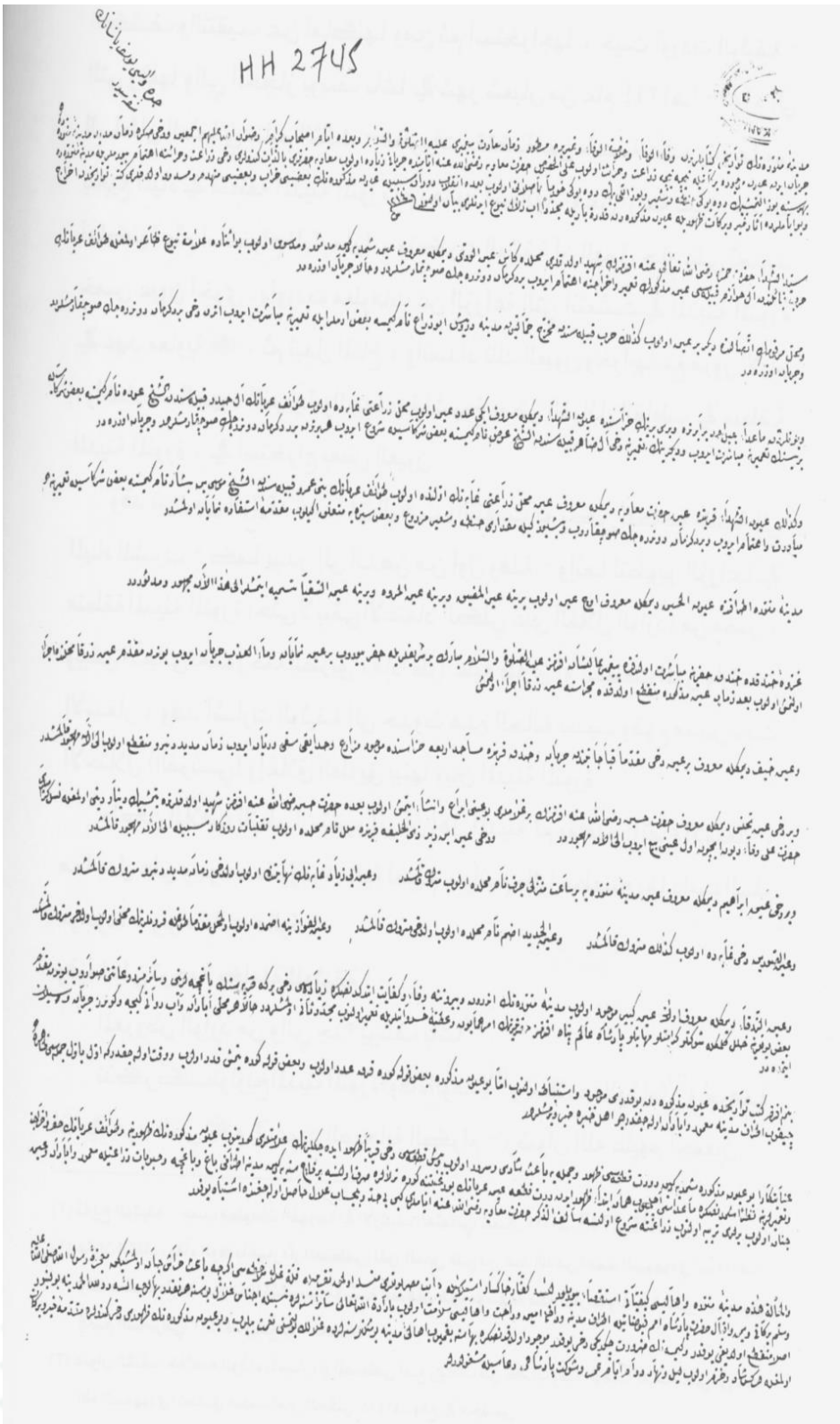

ومن بعدهم ، كانت الزراعة والحراثة ببركة المياه التي تجري من العيون في المدينة المنورة ، ولا سيما في عهد معاوية ﷺ ، حيث كانت تجري بقوة أكثر من ذي قبل . وبسبب عناية معاوية بالزراعة والحراثة ، فقد وصل الإنتاج الزراعي من القمح والشعير في المدينة المنورة في السنة الواحدة إلى حمل مئة وستين ألف بعير ، وحمل مئة وخمسين ألف بعير من التمور ، وعندما تبدلت الأوضاع بعد ذلك تخربت بعض تلك العيون ، وانهدم بعضها الآخر وانسد . وقد تم استخراج [تلك المعلومات] من الكتب التاريخية . وندرج فيما يلي بياناً بذلك ، حتى يمكن الاستفادة منه في التعرف على العيون المذكورة ، واستخراج تلك الينابيع من جديد بقدرة الله تعالى.. شعبان ١٢١٤[هـ] .

العين الموجودة في الموقع الذي استشهد فيه سيد الشهداء سيدنا حمزة ﷺ المعروفة بعين الودي . حيث كانت مردومة ومندثرة . ولما ظهرت منها علامة دالة على نبعها ، قامت قبيلة الحوازم في طائفة عربان حرب بتنظيف العين المذكورة وترميمها ، واستخرجوا منها الماء العذب البارد . وما زال الماء جارياً فيها .

توجد عين أخرى متصلة بالمحل المذكور ، قام بتنظيفها وترميمها المدعو درويش أبو ذراع - من قبيلة حرب كذلك ومن جَمَّالي المدينة - مع بعض رجاله ، وأخرجوا بذلك ماءً بارداً ، ومازالت العين جارية .

وإضافة إلى ذلك فإن عينين متجاورتين في مزارع جبل أحد تعرفان (بعيون الشهداء) ، وقد قام المدعو الشيخ عودة - من قبيلة آل حيدر من طوائف العربان - مع بعض شركائه بتنظيف إحدى العينين المذكورتين. وقام بتنظيف العين الأخرى المدعو الشيخ عوض - من قبائل آل ضاهر - مع بعض شركائه ، فخرجت من كل واحدة منهما مياه عذبة باردة ، ومازالتا تجريان .

وبالقرب من (عيون الشهداء) عند بداية الأرض الزراعية ، عين تعرف (بعين معاوية) ، قام بتنظيفها المدعو الشيخ موسى بن بشار - من قبيلة بني عمرو من طوائف العربان - ، فأخرج ماءً عذباً بارداً ، فزرعت بسقي هذه

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

العين خمسمئة كيل من القمح والشعير ، كما زرعت بعض الخضروات ، واستفيد بذلك من تلك العين .

وفي أطراف المدينة المنورة ثلاث عيون تُعرف بعيون الحسين ، يقال لإحداها عين المضيق ، ولثانيها عين المروة ، ولثالثها عين السقيا . ولكن هذه العيون مندثرة وغير معروفة .

لما بدأ النبي ﷺ بحفر الخندق في غزوة الخندق بيده المباركة ، ظهرت عين ، جرى منها الماء العذب في موقع العين الزرقاء قبل جريانها [أي جريان العين الزرقاء] ، إلا أن هذه العين انقطعت بعد مدة ، فجرى في مجراها ماء العين الزرقاء .

وهناك عين تعرف بعين خيف ، كانت قديماً تجري من جهة قباء ، وكانت تسقي المزارع والحدائق الموجودة بمحاذاة المساجد الأربعة بالقرب من الخندق . إلا أنها انقطعت منذ فترة طويلة ، وأصبحت منذ ذلك الوقت مهجورة .

كما توجد أيضاً عين تعرف بعين تحنس ، استخرجها غلام لسيدنا الحسين ﷺ . ولما استشهد الحسين ﷺكان عليه دين بمبلغ سبعين ألف دينار . فقام ولده علي البار ببيع ذلك النبع ووفى بذلك الدين . وهي مهجورة الآن .

وبالقرب من ذي الحليفة وفي موقع (ملل تام) عين ابن زيد ، وقد أصبحت مهجورة بسبب تقلب الزمان .

والعين التي تعرف بعين إبراهيم ، تقع في الموقع الذي يسمى الجرف ، على مسافة ساعة من المدينة المنورة ، وأصبحت مهجورة .

أما عين أبي زياد فهي تقع في نهاية الغابة ، وهي أيضاً مهجورة منذ زمن بعيد .

وتوجد في الغابة أيضاً عين الصديق ، وقد أصبحت متروكة فيما بعد .

كما أن عين الجديد التي تقع في الموقع المسمى إضم ، باتت مهجورة .

وفي إضم أيضاً عين الفواز ، وهذا الموقع كان محلاً لأفران الفخار ، وأصبحت العين مهجورة .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

والعين الكبيرة التي تعرف بالعين الزرقاء ، مازالت موجودة . وإضافة إلى أن ماءها يكفي لداخل المدينة المنورة وخارجها ، فإن ما تتبقى منها كانت تسقى به الحدائق وسائر المزروعات في قرية (البِرْكَة) . وبالنظر لحدوث خلل في بعض القنوات ، فإنه بأمر من جناب سلطاننا المكرم المهيب [أي السلطان سليم الثالث] ، وبأعطيات سخية منه تم ترميمها ، فأصبح المجددَ الثاني لهذه العين . وهي مازالت عامرة منتعشة من كل أطرافها ، ويجري ماؤها ليل نهار .

سيدي ؛ إن ما استطعنا إخراجه واستنباطه من بطون الكتب التاريخية عن العيون المذكورة ، هو ما تم عرضه بعاليه . وتشير بعض الأقوال إلى أن عدد تلك العيون كان أربعين ، وأقوال أخرى إلى أنها سبعين . ولا بد من وجود الوقت الكافي لإخراجها ، حتى يتم بها إعمار أطراف المدينة المنورة وإنعاشها - كما أفاد بذلك أهل الخبرة - .

وبفضل الله تعالى قد تم حتى الآن العثور على أربع من العيون المذكورة . وكان ذلك مدعاة للسرور والانتعاش . وسوف يتم العثور أيضاً قريباً على خمس أخرى من تلك العيون ، حيث ظهرت علامات ذلك ، وبعد أن يتم استخراج هذه العيون ؛ بحفرها وتنظيفها وترميمها من لدن طوائف العربان ، فلن يتم بعد الآن فتح ماعداها من العيون ، بل إن العيون الأربع المذكورة وحسب رغبة العربان إذا ما سقيت بها الحقول ، فإنه في خلال عدة سنوات سوف تصبح أطراف المدينة المنورة عامرة بالبساتين والحدائق والأراضي الزراعية ، فهذه العيون إذا ما تم ترميم مجاريها ، وشرع في الاستفادة منها بالزراعة ، فلا شك من حصول انتعاش زراعي كبير ، كما كان الأمر في أيام معاوية ﷺ .

والحقيقة أنه بالنظر لكون المدينة المنورة وأهاليها قد تضرروا من استيلاء الكفار على طرق مصر ، فإن الغلال التي كانت تأتي منها أصبحت قليلة ، وكان من المتوقع أن يتضرر الناس في هذا الوقت المحرج ، ولكن بفضل بركات النبي ﷺ ، ثم ألطاف جناب السلطان ، فإن أطراف المدينة المنورة وداخلها كانت آمنة ، وأهلها على سلامة واطمئنان . وبإرادة الله سبحانه وتعالى

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

فقد ارتفعت أسعار الغلال في هذه السنة ، لكن لله الحمد والمنة رغم الغلاء فإنها متوافرة ، ولم تنقطع أبداً . كما أنه ليس هناك مَن تَضرَّرَ بذلك ، لأنه إذا كانت الغلال متوافرة فإن الأهالي لا ينظرون إلى سعرها .

وقد عدّ أهالي المدينة المنورة وجود الغلال في مثل هذه السنوات نعمة . كما أن ظهور تلك العيون المذكورة كان خيراً وبركة لهم . ولذلك فقد سُرَّ الجميع بذلك وانتعشوا ، وباتوا مشغولين بالدعاء بالخير لجناب السلطان .